من خصائص شبه الجزيرة العربية

االشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد

نشر في كتاب

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

بلاد الجزيرة العربية

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م

من خصائص جزيرة العرب

الدكتور الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد(*)

(*) عضو هيئة كبار العلماء، رئيس مجمع الفقه الإسلامي (المملكة العربية السعودية).

إن بعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في شعب المعرفة المختلفة؛ من أهم المهمات لبناء الحياة في جزيرة العرب على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.. فالجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه.

مدخل:

قد يكون من الأهمية بمكان أن نعرض لبعض الخصائص التي امتازت بها جزيرة العرب، وجعلتها محلاً للوحي الإلهي، ومنطلقاً لحمل الخير والرحمة إلى العالم.. فاختيار الجزيرة لحمل الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لما تتمتع به من الخصائص والصفات، فالحمل الثقيل لا تستطيعه اليد الشلاء، والأمانة الكبيرة لا يطيقها المهازيل والتافهون؛ فالمسؤولية تكليف وتشريف، ولايكون التكليف إلا إذا توافرت الأهليات والاستطاعات: و﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ (الأنعام:124).

من هنا رغبنا أن يشاركنا في هذا العمل، الذي نرجو له أن يكون إحدى البصائر المستقبلية على الطريق الطويل، فضيلة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، الذي كانت رؤيته للبعد الرسالي للجزيرة مبكرة في كتابه: (خصائص جزيرة العرب)، وذلك باختيار نبذ مما عرض له، تمثل نوافذ للإطلالة من خلالها،

إلا أن ذلك لا يغني بحال من الأحوال عن العودة إلى الكتاب[1].

الحمد لله تعالى حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولامعقب لحكمه، وأشهد أن مُحَمَّداً عبد الله ونبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستنَّ بسنته.

أما بعد:

فهذا بيان للناس عن أصل من أصول الملة، عن دار النصرة والقبلة، حبيبة المسلمين، عدوة الكافرين، عن الدار الأولى لظهور الإسلام، والخط الأخير في غرة الوجود الإسلامي، جزيرة العرب؛ في حدودها، وحدود الحجاز، وخصائصها في الإسلام، والضمانات الحافظة لها.

أفردتها لما رأيتها عند الكثيرين من السنن المهجورة، مع أن تلك الخصائص معلومة من الدين بالضرورة.

وإن الله سبحانه جلت حكمته وقد رتّب أحكام هذه الدنيا على أسباب ظاهرة، ولم يجعلها قدرية محضة، وإن دين الإسلام هو قدر الله في هذه الجزيرة؛ قاعدة انطلاقه إلى كل الخليقة في المعمورة، وهو من الظهور والوضوح بمكان، وأحكام هذه الجزيرة فيه كذلك، بل هي من آخر ما عهده النبي ﷺ – وهو على فراش الموت– إلى أمته.

وإنك إذا أدرت النظر في سبب هجرها – عند الأكثرين–؛ رأيته أثراً من آثار

(1) عرض الشيخ حفظه الله لكثير من الآثار الواردة في فضل الجزيرة وأحكامها، وأسمائها وأقاليمها وحدودها الجغرافية، من خلال روايات متعددة للتعريف بحدود الجزيرة، كما عرض لخصائص الجزيرة والضمانات المطلوبة لحماية هذه الخصائص، وغير ذلك، وقد رأينا اختصارها والاقتصار على ما غلب عليه الظن أنه مرتبط بالموضوع بشكل مباشر.. ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى كتاب الشيخ بكر: خصائص جزيرة العرب، الطبعة الأولى (الدمام: دار ابن الجوزي، 1412هـ/1992م).. الناشر.

موجة الفتور التي تمر بالمسلمين؛ من ضعف الحس، والغفلة عن تنشيطه صُعُداً إلى الترقي في مدارج الإسلام، والإبقاء على امتيازات داره وكيان أهله؛ عبر جسور شرعية من الكتاب والسنة.

ورأيتَه امتداداً لحبل التراخي من عرب هذه الجزيرة عن وجودهم القيادي في العالم، إذ غرقوا في الترف، والملذات، والتهام الأموال، والتقلب في عدة أوجاع؛ فآلت السابلة إلى ما ترى.

ومن شداد ولائده: أسر النفوس عن توثبها بالحق لنصرته؛ مضغوطاً عليها من كل جانب:﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:21).

وهذا البيان تذكرة باحثة عن خصائص الجزيرة وسبل حمايتها، ثم تنزيل وسائل الإصلاح والاستصلاح، وبعث الهمم على إعمالها وتخليصها من الأدواء:

أيها المصلح من أخلاقنا ... أيها المصلح الداءُ هنا

فإذا خلصت من الأدواء؛ بقي الإسلام في حضانة أهله؛ تشع أنواره، وتظهر شعائره، فتقام الشريعة، وتؤمن السابلة ، وهذا هو الدين كما قال حسان، رضي الله عنه:

وما الدِّين إلا أن تُقام ... وتُؤْمَن سبلٌ بيننا وهضاب

وبها تبقى دارهم مركزاً للإسلام، ودار قيادة للعالم الإسلامي.

وبها يبقى أهلوها قدوة لأهل القبلة؛ قياديين عرباً مسلمين؛ يحمون حمى الدين، وينافحون عنه.

ومن هنا يتضح للبصراء بجلاء منزلة هذا الأصل العقدي، وضرورة إحياء ما هُجِر

من خصائصه، وبَعْثُها من مَرْقدها؛ ليروا كيف منحت الشريعة هذه الجزيرة شخصية مستقلة؛ في قيادتها، وأرضها، وأهلها، ودعوتها؛ على رسم منهاج النبوة لا غير.

وإنه إذا ما عدَّت يوماً نفسها مثل أي قطر من الأقطار، ترضى بمداخلة ما هو أجنبي عن الإسلام، فإنها تعمل على إسقاط نفسها من سجل التاريخ، وتقضي على ميزتها البارزة في خريطة العالم، فيخفت احترام العالم الإسلامي لها، وتفقد رهبة شراذم الكفر منها، وتفتح مجالاً فسيحاً للقوى الشريرة العاتية.

وإنه إذا تقدمت الفتن، والبدع، والأهواء، والنحل، وضروب الغزو الفكري؛ تضرب فارهة على صخرة هذه الجزيرة؛ فقد تجللت حينئذ من كلّ وَيْلٍ تياراً، وآذنت بمشاكل ذات أحجام مختلفة في التمرد، وإذا تشربت النفوس بهذه الأنماط المتناثرة على جنبتي الصراط المستقيم؛ تشكلت الحياة إلى مزيج من الأهواء والضلال البعيد.

وهذا إيذان بِدَكٍّ آخر حصن للإسلام، وتقليص لظله عن معاقله في هذه الجزيرة المسكينة.

فالله طَليبُ الفَعَلَةِ لذلك، وهو حسيبهم.

وإذا نفذت أنوار البصيرة إلى هذا الأصل العقدي وخصائصه؛ فلا بد من إدارة النظر آخِراً بالضمانات الحافظة الحامية لها؛ تبصرة لمن بسط الله يده على أي من هذه الجزيرة ولمن شاء الله من عباده، ولطماً لهذا الزحف المهول والموجات الطاغية المدفوعة بذمم فاسدة؛ لصدها عن هذه الجزيرة وأهلها، والرقابة اليقظة على

صنائعها الرابضين في مغارات الجزيرة؛ حاملين بصمات العداء والاستعداء؛ يعملون في الجهر والخفاء؛ في مجالات: العلم، والسلوك، والأخلاق، والإعلام، والاقتصاد.

وعليه؛ فإذا كنا من هنا نعلم أحكام هذه الجزيرة؛ فمن هنا – أيضاً– نبدأ فننادي أهل العلم والإيمان أن يُفيضوا على أمتهم بساعات من الاكتساب للاحتساب –و«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[1]–؛ استنهاضاً للموحدين على مواضع الفتور وسبل الغواشي التي غشيت التوحيد وأوهنت أخلاقيات هذه البلاد، وإحياء لما تآكل من معالم هذا الدين.

والحديث عن خصائص هذه الجزيرة واحدة منها.

وقد عنيت الإيجاز؛ لأن القصد غرس هذه النعمة في أفئدة أبناء هذه الجزيرة؛ يحدو ذلك الحَمِيّة؛ لله، ودينه، وشرعه؛ ليس إلا. والله المستعان.

(1) أخرجه البخاري.

حدود جزيرة العرب على العموم

كما أن شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرة في العالم، فقد حماها الله تعالى بثلاثة أبحر من جهاتها الثلاث: غرباً، وجنوباً، وشرقاً.

فيحدها **غرباً**: بحر القُلْزُم- و(القلزم): مدينة على طرفه الشمالي- ويقال: الحبشة، وهو المعروف الآن باسم: (البحر الأحمر).

ويحدها **جنوباً**: بحر العرب، ويقال: بحر اليمن.

وشرقاً: خليج البصرة، الخليج العربي.

والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين والفقهاء، والمؤرخين، والجغرافيين، وغيرهم.

وممن أفصح عن هذا التحديد بالنص: ابن حوقل، وأطلق على الأبحر الثلاثة اسم: (بحر فارس)، والإصْطَخْري، والهَمْداني، والبكري، وياقوت، وهو منصوص الرواية عن الإمام مالك وتفيده الرواية عن الإمام أحمد رحم الله الجميع.

الحد الشمالي: ويحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي، وما على مُسَامَتِتِه شرقاً؛ من مشارف الشام وأطرافِه (الأردن حالياً)، ومُنْقَطَع السماوة من ريف العراق، والحد غير داخل في المحدود هنا.

وبهذا قال الأصمعي، وأبو عبيدة.

وهذا هو ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، فقال: «جزيرة العرب: هي من بحر القُلْزُم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر اليمامة إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام، وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله...».. انتهى مختصراً.

هذه هي الحدود الطبيعية بمعالمها الظاهرة – ثلاثة أبحر– غرباً وجنوباً وشرقاً؛ وهي تحديد جغرافي يلتقي فيه الفقهاء مع غيرهم.

ولهذا التحديد بالمياه الإقليمية الثلاثة صارت تعرف عند المتأخرين باسم (شبه جزيرة العرب)، وإنما قيل: (جزيرة العرب)؛ بحكم إحاطتها بثلاثة أبحر، ولأن الحد الشمالي، وإن كان إلى مشارف الشام وريف العراق؛ فإن ما وراء ذلك من أنهار: بردى، ودجلة ، والفرات، متصل برأس الخليج العربي، فكأن التجوز في الإطلاق بحكم المجاورة.

ولذا قال الخليل: «إنما قيل لها (جزيرة العرب)؛ لأن بحر الحبش، وبحر فارس، والفرات قد أحاطت بها، ونُسِبت إلى العرب؛ لأنها أرضُها، ومسكنُها، ومعدنُها»، انتهى...

ونحوه ذكره الباجي عن الإمام مالك...

حدود الحجاز:

الحجاز– في اللغة–: الحد الفاصل.

وفي سبب تسميته توجيهان:

الأول: سميت الحجاز حجازاً، لأنها قد احتُزِمَت واحتُجِزت بالجبال،

أو بالحِتَار، أو بهما، فسميت حجازاً، فهو من الاحتجاز؛ بمعنى: شد الوسط بالحُجْزة، أو بالحجاز.

والحجاز حجازان:

1- **حجاز المدينة**: وهو ما حجزته الحِرار.. والحِرار الحاجزة: هي خيط من حجارة سوداء، تمتد من الجنوب إلى الشمال في سلسلة متتابعة، فتتسع حيناً، وتضيق أحياناً في مواضع.

وهي من الجنوب مما يلي مكة إلى المدينة شمالاً فتبوك: حَرّة بني سُلَيم، فحرة واقم، فحرة ليلى ، فحرة شوران، فحرة النار، وهي أطولها مسافة.

2- **الحجاز الأسود**: وهو ما حجزته الجبال، وهي: سراة شنوءة.. وسلسلة جبال السراة هذه هي أعظم جبال في بلاد العرب.

و(السراة) : أعلى الشيء؛ كما يقال لظهر الدابة: السراة. وتمتد من جبل تثليث جنوباً إلى الطائف في الشمال.

خصائص جزيرة العرب

ينتظم هذا ذكرَ خصائص الجزيرة عموماً، فالحجاز خصوصاً، فعرب الجزيرة خصوصاً، فالعرب عموماً.

فألق إليها سمعك، فهو خيرٌ تُدَلُّ عليه.

1- خصائص الجزيرة عموماً:

هذه جملتها:

الأولى:

هذه الجزيرة حرم الإسلام، فهي مَعْلَمُه الأول، وداره الأولى، قصبة الديار الإسلامية، وعاصمتها، وقاعدة لها على مر العصور، وكَرِّ الدهور، منها تفيض أنوار النبوة الماحية لظلمات الجاهلية، ولذلك جاءت المنح المحمدية في صحيح السنة بما لهذه الجزيرة من خصائص وأحكام؛ لتبقى هذه المنطقة قاعدة الإسلام دائماً؛ كما كانت قاعدته أولاً، ومعقل الإيمان آخراً؛ كما كانت سابقاً.

وهذه – وايم الله- ضمانات لا يمكن أن تكون لهيئة الأمم المتحدة (!) ولا لمجلس الأمن (!) ولا لمنظمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (!) التي ما نشأت إلا في محيط حكومات الغاب وتهارش العباد.

أما جزيرة العرب؛ فلها من سامي المكانة التي تتميز بها في (خريطة العالم)، ودقيق الضمانة الواجب توفيرها، ما يجعل فعاليتها في أمم الأرض تفوق هذه المؤتمرات التي هي في حقيقتها تآمر على ما ينبذونه توهيناً باسم (العالم الثالث)، الذي ليس بعده في حسبانهم من رابع، وباسم الشرق الأوسط.. وهذا

الاصطلاح الحادث وسابِقُه من تخطيط يهود قبحهم الله؛ لتبقى منطقة العرب والمسلمين منطقة جغرافية فحسب، لا اختصاص لها بعرب ولا بمسلمين، وهو تخطيط خبيث يرمي بعد إلى تسويغ إقامة دولة يهود، خسئوا.

وليُعلم أولاً أن الشرق مشرقُ العظائم، وأنه بلغ موضع أقدامهم بسلطان قائم، وما على الله بعزيز أن يبلغ الإسلام مبلغه منهم، وبالغ الأمل في الأفق يلوح، ونزول النصر لنا مرهون منا بتوبة نصوح.

فاعرف هذه الخصيصة لجزيرة العرب من أنها (حرم الإسلام)، وللحرم حرماته التي لا تنتهك ، ولن تكون دار كفر أبداً.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

الثانية:

عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1].

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة...

والخلاصة: أن متن الحديث ثابت من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومعنى هذا الحديث: أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة على

(1) رواه مسلم في "صحيحه" (2812)، الترمذي (1937)، وأحمد 313/3 و354)، وأبو يعلى (2294)، والبغوي في "شرح السنة" (3525)، وابن أبي عاصم في السنة(8)، وابن حبان (64و1836) ؛ من طرق عنه.

الإشراك بالله تعالى.

ومنذ بعثة النبي ﷺ وهي إلى يومنا هذا دار إسلام – ولله الحمد، حماها الله وسائر أوطان المسلمين–، ولم يعرف الشرك فيها إلا جزئياً على فترات في فرد أو أفراد، ثم يهيئ الله على مدى الأزمان من يردهم إلى دينهم الحق.

على أن بعض العلماء، رحمهم الله تعالى، رأى عموم هذا الحديث لأمة مُحَمَّد ﷺ.

قال ابن رجب، رحمه الله، في شرحه لهذا الحديث: «المراد أنه يئس أن تجتمع الأمة كلها على الشرك الأكبر»، انتهى.

وذلك كما في قول الله تعالى من سورة المائدة: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ﴾ (المائدة:3).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وعلى هذا يَرِدُ الحديثُ الصحيحُ: (فذكره)».

وبهذا يكون ذكر جزيرة العرب؛ لمزيتها بأنها ديار الإسلام، وأهلها أصلُ المسلمين ومادتهم.. والله أعلم.

الثالثة:

جزيرة العرب وقفٌ في الإسلام على أهل الإسلام؛ على من قال : (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله) ، وقام بحقهما.

جزيرة العرب وديعة النبي ﷺ إلى أمته، التي استحفظهم عليها في آخر ما عهده النبي ﷺ .

فهي دار طيبة، لا يقطنها إلا طيب، ولما كان المشرك خبيثاً بشركه؛ حرمت عليه جزيرة العرب...

الرابعة:

ومن خصائص هذه الجزيرة المباركة أن الإسلام حين يُضْطهد في دياره خارجها، فإنه ينحاز إلى هذه الجزيرة، ويأوي إليها، فيجد كرم الوفادة بعد الغربة وطول المحنة.

وفي ذلك جاء حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[1].

فانظر كيف ربط النبي ﷺ بين غربة الإسلام، ثم احتضان هذه الجزيرة له؛ انتشالاً من غربته.

2- خصائص الحجاز:

يقع الحجاز من جزيرة العرب موقع التاج من الحلة، وبين مسجديه يأرز الإيمان، وينحاز في آخر الزمان، كما سبق حديثُ ابن عمر رضي الله عنهما.

وتمتع بهذه الشذرة الفائقة من كلام القاضي عياض-رحمه الله تعالى- في "الشفا" عن الحرمين الشريفين، فيقول:

«وجدير بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح،

(1) أخرجه مسلم.

واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها: أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها»، انتهى مختصراً.

واعلم أن الخصائص السالفة لجزيرة العرب هي للحجاز – قلب الجزيرة، بل قبل العالم الإسلامي– من باب أولى.

وقد اختُصَّ الحرمان الشريفان – مكة حرسها الله تعالى، والمدينة النبوية حرسها الله تعالى – بخصائص وميزات:

خصائص مهد الهداية (البلد الحرام، أم القرى، مكة)؛ زادها الله شرفاً:

وفي خصوص البلد الحرام؛ فآيات القرآن الكريم، وأحاديث نبيه عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، متكاثرة نصوصها على بيانها وذكرها، وكتب المؤرخين – وبخاصة عن تاريخ الحرمين الشريفين– توضح ذلك وتشرحه:

واكتفي هنا بذكر ما رقمه قلم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في فاتحة كتابه الحافل "الهدي النبوي" (1/46-54) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:68)، فقال رحمه الله تعالى:

«ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام؛ فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده،

وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يُسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة ، ولا ينفر له صيد، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته للتمليك، بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، كما في "الصحيحين" عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[1].

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلا الْجَنَّةُ**»[2].

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ**».

فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده؛ فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين:3) ، وقال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ (البلد:1) .

(1) وأخرج البخاري في صحيحه: «**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**».
(2) أخرجه الترمذي.

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها، والطواف بالبيت الذي فيها؛ غيرها، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتحط الخلايا والأوزار فيه؛ غير الحجر الأسود، والركن اليماني.

وثبت عن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، ففي سنن النسائي والمسند، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ أنه قال: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة**»[1].

وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضاً، ولغيره مما يستحب ولا يجب.

وفي المسند، والترمذي والنسائي؛ عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة من مكة يقول: «**وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[2].

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة؛ دون سائر بقاع الأرض.

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، وفي رواية لمسلم: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**».

(2) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح.

وأصح المذاهب في هذه المسألة أنه لا فرق بين الفضاء والبنيان؛ لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت في غير هذا الموضع، وليس مع المفَرِّق ما يقاومها ألبتة؛ مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين.

ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد في الأرض؛ كما في الصحيحين عن أبي ذر قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ قَالَ: **الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **الْمَسْجِدُ الأَقْصَى**، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: **أَرْبَعُونَ عَامًا**»[1].

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!

وهذا من جهل هذا القائل؛ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم، بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها، فرع عليها، وهي أصل القرى، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل فهي كما أخبر النبي ﷺ عن الفاتحة أنها أم القرآن، ولهذا لم يكن لها من الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن

(1) أخرجه مسلم.

عباس رضي الله عنهما، وقد روي عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: «**لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من غير أهلها**».. ذكره أبو أحمد بن عدي؛ ولكن حجاج بن أرطاة في الطريق، وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها؛ فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبي حنيفة، والقولان الأولان للشافعي وأحمد.

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهمَّ بالسيئات وإن لم يفعلها؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:25).

فتأمل كيف عدَّى فعل الإرادة ها هنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا؛ إلا لما ضمن معنى فعل (هم)؛ فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه، لا كمياتها؛ فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب، وانعطافها، ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

مَحاسنه هَيُوْلَى كلِّ حسنٍ ومغناطيس أفئدةُ الرجالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي : يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له اشتياقاً.

لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عنها حين يَنْظُرُها حتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مُشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أُنفق في حبها من الأموال والأوطان؛ مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطب والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه – لو ظهر سلطان المحبة في قلبه– أطيب من نعم المتَحَلِّيَة وترفهم ولذاتهم.

وليس محباً من يَعُدُّ شقاءه عذاباً إذا ما كان يَرْضى حبيبه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله:﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ (الحج:26)، فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته؛ كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم.

فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه؛ فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر، وتخصيصاً وجلالة زائداً على ما كان له قبل الإضافة.

ولم يوفق لفهم هذا المعنى من سَوَّى بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأماكن،

وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح.

وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً، قد ذكرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده؛ فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات، ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام، ومنى، وعرفة، والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة، لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها.

والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.. قال تعالى:﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:124)؛ أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم.

ولو كانت الذوات متساوية —كما قال هؤلاء– لم يكن في ذلك رد عليهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأنعام:53)؛ أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته، فيختصه بفضله، ويمن عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاها الله، وهو سبحانه الذي فضـــلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه، وهذا اختياره: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:68)..».

إلى أن قال رحمه الله: «... ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكُم، ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً، ولا يُفضِّله ويُرجِّحُه، إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله.

نعم؛ هو معطي ذلك وواهبه، فهو الذي خلقه، ثم اختاره بعد خلقه، وربك يخلق ما يشاء ويختار» انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، في الصفدية (1/220-221) ما نصه: «كذلك ما خص به الكعبة الحرام من حين بناه إبراهيم وإلى هذا الوقت من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه وغيرها، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا ؛ فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله».

وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض،

حتى تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة، فيكونون هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس.

وهذا مما يُعلَم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر، وقوى نفوسهم وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين.

ولهذا كان أمر البيت مما حيّر الفلاسفة والمنجمين والطبائعية؛ لكونه خارجاً عن قياس عقولهم وقوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب؛ مثل قول بعضهم: إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يبخر، ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع ليُقْبِل الناس إلى الحج!

وهذا مما يَعلَمُ كلُّ من عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب، وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا، وأنه لا ينزل أحد من أهل مكة إلى ما تحت الكعبة، ولا يحفره أحد، ولا يبخر أحد شيئاً هناك، ولا هناك صنم ولا غير صنم!!

وكان ابن سبعين وأمثاله من هؤلاء يحارون من هذا، وربما قالوا: ليت شعرنا؛ ماهو الطلسم الذي صنعه إبراهيم الخليل حتى صار الأمر هكذا؟ وهم يعلمون أن أمور الطلاسم لا تبلغ مثل هذا، وأنه ليس في الأرض ما يقارب هذا، وأن الطلاسم أمور معتادة معروفة بأسباب معروفة، ولهذا يصنع الرجل طلسماً ويصنع الآخر مثلَه أو أعظمَ منه، وأما هذا؛ فخارج عن قدرة البشر.

وليس في الوجود طلسم يستحوذ على أهل الأرض، ولا يتصرف في قلوب أهل الأقاليم الثلاثة، وهم أفضل الإنس، وأكملهم عقولاً وأدياناً، والطلاسم إنما يقوى تأثيرها إذا ضعف العقل، فيؤثر في الجماد أكثر من الحيوان، ويؤثر في البهائم

أكثر من الأناسي، ويؤثر في الصبيان والمجانين أكثر من العقلاء، وهكذا تأثير الشياطين، كلما ضعفت العقول؛ قوي تأثيرهم».. انتهي.

خصائص المدينة النبوية:

وأما الدار النبوية الشريفة: طَيْبَةُ، وطابَةُ الطَّيِّبَة، دار الهجرة، المدينة النبوية المنورة؛ كما قال حسان بن ثابت ﷺ:

بطيبةَ رَسْمٌ للرسولِ ومَعْهدُ مُنيرٌ وقَدْ تَعْفوُ الرَّسومُ وتَهْمَدُ

فلها من الخصائص الشريفة:

1- تسميتها (حرماً)؛ مثل مكة، حرسهما الله تعالى:

وليس في الدنيا ما يطلق عليه اسم الحرم سواهما؛ إلا أن مكة يقال لمسجدها: المسجد الحرام، أما المدينة؛ فلا يقال لمسجدها: الحرم، ولا المسجد الحرام، وإنما يقال: مسجد النبي ﷺ .

ولهذا فلا يقال للمسجد الأقصى: ثالث الحرمين، لأن لفظ (الحرم) لا يطلق عليه، وقد بينت ذلك في "معجم المناهي اللفظية".

2- تحريمها كان على لسان رسول الله ﷺ:

وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، بعد غزوة خيبر، أما مكة، حرسها الله تعالى؛ فتحريمها على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام.

3- المدينة حرم آمن؛ مثل مكة:

فعن سهل بن حُنَيْف ﷺ أن رسول الله ﷺ أهوى بيده إلى المدينة، وقال:

«إِنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ»[1].

وحرمها ما بين لا بَتَيْها – ويقال: ما بين مَأْزَمَيْها، وهما الحرَّتان؛ شرقاً وغرباً، ويحدها شمالاً وجنوباً جبلان: جبل أُحد شمالاً، وجبل عَيرٍ جنوباً. ويقال: شمالاً جبل ثور، وهو جبل صغير خلف أحد.

وقد غلط من الفقهاء من ظن أن ثوراً هو الذي بمكة، ومعناه إخراج المدينة من المحدود، فلا تكون حرماً.

4– وقد خصها النبي ﷺ بأدعية عامة، وخاصة:

أ– فمن العامة قوله ﷺ: « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ**»[2].

ب– ومن الخاصة: دعاؤه ﷺ بأن يبارك الله في صاعها، ومدها، وأن ينقل الله حماها إلى الجحفة وهي مهيعة.

5– إخبار النبي ﷺ أن الإيمان يأرِز وينحاز إلى المدينة، زادها الله شرفاً.

6– وقد خص النبي ﷺ أهلها وسكانها بأمور منها ما يلي:

أ– عن جابر – وذكر قصة– أن النبيﷺ قال:

« **الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا**»[3].

ب– عن أنس رضي الله عنه أن رسول ﷺ الله قال: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلا عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ**

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه البخاري.
(3) أخرجه البخاري.

فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»[1].

ج- ما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَصْبِرُ عَلَى لأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إلا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

د- وما في حديثه -أيضاً- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا**»[3].

هـ- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ**»[4].

و- وعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**...الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إلا أَبْدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ...** »[5].

ز- لا يدخلها الطاعون، كما في حديث عند البخاري وهو من أفراده عن مسلم. وبحثه في (بذل الماعون) لابن حجر، ص102، 204.

7- والمدينة النبوية لها أحكام فقهية خاصة بها:

أ- فلا يُنَفَّر صيدها، ولا يُقتل، وجزاء الصائد وعقوبة فاعل ذلك: سلبه.

ب- ولا يقلع منها شجرة، وأبيح ذلك لرجل يعلف بعيره.

ج- ولا تُلتقط لُقَطَتُها.

---

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه مسلم.
(3) رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه.
(4) أخرجه مسلم.
(5)أخرجه مسلم.

د- ولا يُهْرَاق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال.

هـ- لا تقتل حيَّاتها إلا بعد إيذانها ثلاثة أيام.

8- خصائص لبعض ثمارها:

عن سعد بن أبي وقاص، ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِمَّا بَيْنَ لابَتَيْهَا حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ حَتَّى يُمْسِيَ**»[1]. وفي رواية عنده وعند البخاري تقييده بالعجوة. وفي رواية لمسلم: «**إِنَّ فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءً**»[2].

وفي "مسند أحمد" وغيره: «**الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهِيَ شِفَاءٌ...**» [3] الحديث.

9- خصائص لبعض بقاعها وجبالها في الفضل والفضيلة:

أ- فضل المسجد النبوي الشريف، وفضل الصلاة فيه: ويشترك مع مسجدي مكة والمقدس بمضاعفة أجر الصلاة، وجواز شد الرحل؛ على ما هو مشهور في السنة.

ب- فضل الروضة من مسجده ﷺ، وأنها ما بين بيته ومنبره ﷺ: ولم يأت في لفظ صحيح أنها ما بين قبره ومنبره، وإنما كان ذلك بعد، باعتبار ما كان من قبر النبي ﷺ في بيته.

ج- فضل صلاة ركعتين في مسجد قباء ، وأن النبي ﷺ كان يأتيه كل

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه مسلم.
(3) أخرجه أحمد.

سبت ماشياً وراكباً.

د- وادي العقيق: واد مبارك.

هـ- جبل أحد : ثبت عن النبي ﷺ قوله:« ... **أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[1].

10- ومنها: تحريم الإحداث فيها، وإيواء من أحدث حدثاً، وعقوبة من فعل ذلك بأن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، كما في حديث الخليفة الراشد علي ﷺ، المشهور بحديث الصحيفة، والله أعلم.

3- خصائص عرب الجزيرة

العرب قوم شِرافٌ، يَزِنُون الحياة بغير ما تزنها به أمم البطون والفروج، وموازينهم في الحياة تدور على قطب واحد، وهو: المَحْمَدة، والذكر الحسن.

وفي حدِّهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"واسم العرب في الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان باللغة العربية.

الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القُلْزُم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل الشام.

وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت

(1) متفق عليه في غيره من الأحاديث، واللفظ للبخاري.

الأمصار، سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإلى سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم، والبربر وغيرهم.

ثم انقسمت هذه البلاد قسمين:

منها: ما غلب على أهله لسان العرب، حتى لا تعرف عامتهم غيره، أو يعرفونه وغيره، مع ما دخل على لسان العرب من اللحن، وهذه غالب مساكن الشام والعراق ومصر والأندلس ونحو ذلك، وأظن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً.

ومنها: ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم؛ كبلاد الترك وخراسان وأرمينية وأذربيجان ونحو ذلك.

فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداءً، وما هو عربي انتقالاً، وإلى ما هو أعجمي.

وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام:

قوم من نسل العرب، وهم باقون على العربية، لساناً وداراً، أو لساناً لا داراً، أو داراً لا لساناً.

وقوم من نسل العرب، بل من نسل هاشم، ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما.

وقوم مجهولو الأصل، لا يدرون : أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم؟ وهم أكثر الناس اليوم، سواء أكانوا عرب الدار واللسان، أم عجماً في أحدهما.

وكذلك انقسموا في اللسان ثلاثة أقسام:

قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمة.

وقم يتكلمون بها لفظاً لا نغمة، وهم المتعربون الذين ما تعلموا اللغة ابتداءً من العرب، وإنما اعتادوا غيرها، ثم تعلموها؛ كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية.

وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلاً.

وهذان القسمان: منهم من تغلب عليه العربية، ومنهم من تغلب عليه العجمة، ومنهم من يتكافأ في حقه الأمران: إما قدرةً، وإما عادةً.

فإذا كانت العربية قد انقسمت نسباً ولساناً وداراً؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف هذا الانقسام، خصوصاً النسب واللسان».. انتهى.

ولفاضل مزاياهم ظهر الإسلام فيهم، واصطفى الله نبيه ورسوله مُحَمَّداً ﷺ منهم، فكانت النبوة من أصلابهم، وترشحوا حملةَ نشرِ الرسالةِ الأُوَل، وصار اعتقاد فضلهم على غيرهم من أصول الاعتقاد في الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم؛ عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم، وغيرهم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم؛ بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور.

ولله تعالى حِكَمٌ بالغة في أن اختار لهذه الرسالة رجلاً عربياً، وليس هذا موضع بيان ما بلغ إليه العلم من تلك الحكم، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾.

بيد أنا نقول: إن الرسول لما كان عربياً؛ كان بحكم الضرورة يتكلم بلسان العرب، فَلَزِمَ أن يكون المتلقون منه الشريعة بادئ ذي بَدْءٍ عرباً، فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها، وهم من جملتهم، واختارهم الله لهذه الأمانة؛ لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم.

فهم بالوصف الأول أهلٌ لفهم الدين وتلقِّيه.

وبالوصف الثاني أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه.

وبالوصف الثالث أهل لسرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة، ولم يكونوا على شريعة مُعْتَدٍّ بها متماثلة حتى يصمموا على نصرها.

وبالوصف الرابع أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى؛ فإن حزازات العرب ما كانت إلا بين قبائلهم؛ بخلاف مثل الفرس مع الروم، ومثل القبط مع الإسرائيليين.

ولا عبرة بما جرى بين بعض قبائل العرب وبين الفرس والروم في نحو يوم ذي قار، ويوم حليمة؛ لأنها حوادث نادرة، على أن العرب كانوا فيها يُقاتلون انتصاراً لغيرهم من الفرس أو الروم، فإحَنُهُمْ معهم محجوبة بإحَنِ من قاتلوا هم وراءهم».. انتهى.

ولهذا ذكر أبو مُحَمَّد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة، التي قال فيها:

«هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى

بهم فيها، وأدركت مَنْ أدركت مِنْ علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم؛ ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم.

فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية.

وساق كلاماً طويلاً، إلى أن قال:

«ونقرُّ للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ: «**الحب للعرب إيمان وبغضهم نفاق**»، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرُّون فضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف».

وعن خصائصهم تتبعت وقيدت كثيراً، فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هو مدون في كتاب "أم القرى" (ص218-222)، وعنه في "مجلة المنار" (5/861-862)، فها أنا ذا أسوقه باختصار قليل:

«وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية؛ بناء عليه؛ رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها، وأهلها ومن يجاريهم، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً، وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي.

ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب فنقول:

1- الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.

2- الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

3- الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.

4- الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية؛ لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً.

5- الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط؛ جنسية ، وأدياناً، ومذاهب.

6- الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

7- الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرارٍ؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظراً لفقرها الطبيعي.

8- عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية؛ لظهور الدين فيهم.

9- عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين.

10- عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين؛ لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.

11- عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين، وتأييده، والفخار به؛ خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز، واليمن، وعمان ، وحضرموت، والعراق، وإفريقية.

12- عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً، سلفياً، بعيداً عن التشديد والتشويش.

13- عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية، وأشدهم أَنَفَةً؛ لما فيهم من

خصائص البدوية.

14- عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم.

15- عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة؛ بدليلي: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأدبياتهم.

16- عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات، وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله.

17- عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم، وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.

18- عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم.

19- العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

20- العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم (300مليون).

21- العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

22- العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب

في الهيئة الاجتماعية.

23- العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.

24- العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة.

25- العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

26- العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

... والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في الدين، وللحزم، والعزم، عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيء، للسياسات والجنسيات، ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد، وإلا؛ فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلقة في سمائهم.

والله الموفق وإليه ترجع الأمور».. انتهي باختصار يسير.

4- خصائص قوم النبي ﷺ وعِتْرَته

وعن مزايا قوم النبي ﷺ وعترته واستعدادهم للنهوض بدعوته كتب كثير من العلماء، وبخاصة الذين ألفوا في أحوال العرب.

وللشيخ مُحَمَّد رشيد رضا رحمه الله تعالى مبحث نفيس في رسالته "خلاصة

السيرة المحمدية" (4-16)، حيث قال ما نصه:

«مزايا قومه وعترته، واستعدادهم للنهوض بدعوته ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:33)، إذ جعل فيهم النبوة والهداية للمتقدمين والمتأخرين.

ثم إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى سيد ولد آدم من بني هاشم، فكان آل إسماعيل أفضل الأولين والآخرين، كما كان بنو إسحاق أفضل المتوسطين، إذ كانت هداية الأنبياء من بني إسحاق وغيرهم خاصة، وهداية هذا النبي من آل إسماعيل عامة، فبه أكمل الله تعالى الدين، وأتم نعمته على العالمين؛ كما اقتضته سنته تعالى في النشوء والارتقاء، التي كانت في البشر أظهر منها في سائر الأحياء.

كيف كان اصطفاء الله تعالى لهذه الأصول من الأمة العربية، الذي ثبت في "صحيح مسلم" و"سنن الترمذي" من كتب السنة السنية؟

وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام، ففضلوا به غيرهم من الأقوام، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام والعدوان والخصام؟

الجواب:

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر، وسعة الحرية الشخصية؛ أيام كانت الأمم

ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية، محظوراً عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية؛ كما حظرت عليها الحكومات المستبدة حرية التصرفات المدنية والمالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال؛ أيام كانت الأمم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء، المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرفونها كما يصرفون السوائم، لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب، ولا إرادة لها دونهم في عمل ولا كسب.

كانت العرب ممتازة بعزة النفس، وشدة البأس، وقوة الأبدان، وجرأة الجَنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف، وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومَسودِين أذلهم قهر الاستعباد.

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية؛ كقِرى الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء، وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار ، وحماية اللاجئ وحرمة الجار، أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية، وثقل الضرائب والأتاوي الأميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفساد الأخلاق قد عم الراعي والرعية.

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان، وبلاغة المقال، وكادت تتحد لغات قبائلها أو لهجاتها العربية، وبزّت المضَريَّة منها الحِمْيَرِيَّة؛ بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية والأسواق الأدبية.

فتلك كبريات مزايا الأمة العربية، التي أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية، والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدنيتهم العادية، واستعمارهم للبلاد الكلدانية والبابلية، والبلاد الفينيقية والمصرية، التي تشهد لها سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها في اللغة الهيروغلوفية، وبعد أن غلبت عليهم الأمية، وفشت فيهم خرافات الوثنية وعصبية الجاهلية.

وجملة مزاياهم أنهم كانوا أسلم فطرة على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة.

والإصلاح الإسلامي مبني على تقديم إصلاح الأنفس؛ باستقلال العقل والإرادة، وتهذيب الأخلاق، وحرية الوجدان، على إصلاح ما في الأرض من معدن ونبات وحيوان.

وبهذا كان الله تعالى يعد هذه الأمة للإصلاح العظيم، الذي جاء به مُحَمَّد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم.

اصطفاء كنانة قريش وبني هاشم:

أما اصطفاء الله لكنانة الشيخ الجليل، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل؛ فيفسره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله، حتى نقل الحافظ في "شرح البخاري" أنهم كانوا يحجون إليه لعلمه وفضله، وكان على سنة جده إبراهيم الخليل؛ لا يأكل وحده.

ومما يؤثر عنه من الحكم الجليلة، كما روي في "السيرة الحلبية": رب صورة تخالف المِخْبَرة، قد غَرّت بجمالها، واختُبر قُبْحُ فعالها، فاحذر الصور، واطلب الخُبَر.

فهذا دليل على ما وصف به من العلم والحكمة.

وأما حج العرب إليه؛ فهو دليل على أنه كان مثابة التعارف، ومعقد رابطة الاجتماع والتآلف.

وإما اصطفاء الله تعالى لقريش الميامين الغر، وهم ذرية فِهْر بن مالك، وقيل: جده النضر؛ فقد كان بما آتاهم من المناقب العظام، ولا سيما بعد سكنى مكة، وخدمة المسجد الحرام، إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلاهم آداباً، وأفصحهم ألسنة، وهم الممهَّدون لجمع الكلمة.

فقد نقل أهل السير أن مالك بن النضر كان ملك العرب، وأن كعب بن لؤي كان يجمع قومه ويعظهم يوم الجمعة، وكانوا يسمونه يوم العروبة، وأنهم كانوا يجلونه في حياته، ثم أَرَّخوا بموته بعد وفاته، وأن قصياً جمع شمل قبائل قريش بمكة، إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونها من خزاعة، وقد تملك عليهم فَمَلَّكُوه؛ إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده.

قال ابن إسحاق: وهو الذي أنشأ الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة، وقد أجمعت قريش على طاعته وحبه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، ثم وُزِّعت المناصب بعده على الزعماء.

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه: الأخلاق العلية، والفواضل العملية، والفضائل النفسية، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكبر والأثرة والأمور الحربية، ولذلك غُلِبوا على الرياسة حتى بعد الإسلام، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام، فهو أنفى للشُّبَهِ عن رسالته، عليه أفضل الصلاة والسلام».. انتهى ملخصاً.

وعما اختصت به العرب من العلوم، يقول ابن فارس، رحمه الله تعالى، في "الصاحبي" (ص76-77) ما نصه:

«باب ذكر ما اختصَّت به العرب:

من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب: الإعراب ، الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدْرٌ من مصدر، ولا نعت من تأكيد.

وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار.

وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً؛ لأنَّا نقول: "أَزَيدٌ عندَكَ؟"، و"أَزَيداً ضربت؟" فقد عمل الإعراب وليس هو من باب الخبر.

وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو.

قال أحمد بن فارس: وهذا كلام لا يُعَرَّج على مثله، وإنما تشبَّه القوم آنفاً بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا، وغيّروا بعض ألفاظها، ونسبوا ذلك إلى قوم ذوي أسماء منكرة؛ بتراجم بشعة، لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها، وادَّعوا مع ذلك أن للقوم شعراً، وقد قرأناه، فوجدناه قليل الماء، نَزْر الحلاوة؛ غير مستقيم الوزن.

بلى؛ الشعر شعر العرب، ديوانهم، وحافظ مآثرهم، ومُقيِّد أحسابهم.

ثم للعرب العروض، التي هي ميزان الشعر، وبها يعرف صحيحه من سقيمه،

ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه؛ علم أنه يربي على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء؛ من الأعداد، والخطوط والنقط، التي لا أعرف لها فائدة؛ غير أنها مع قلة فائدتها، تُرِقُّ الدين، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه.

وللعرب حفظ الأنساب، وما يعلم أحد من الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب.

قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:13)، فهي آية ما عمل بمضمونها غيرهم.

ومما خص الله جل ثناؤه به العرب: طهارتهم، ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرهم؛ من مخالطة ذوات المحارم، وهي مَنْقَبَة تعلو بجمالها كل مأثرة.

والحمد الله».. انتهى.

وهكذا...

وفي أعقاب خاتمة الرسالات لنبينا ورسولنا مُحَمَّد بن عبد الله المطَّلِبي الهاشمي ﷺ كانت دعوة التجديد على يد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب المتوفي سنة (1206هـ) رحمه الله، الذي نصب راية الدعوة إلى التوحيد، وإحياء ما اندرس من معالم الدين، والتي لا يزال ينعم بها من شاء الله من عباده في هذه الجزيرة وخارجها.

وفي الحاضر: هذه اليقظة الإسلامية التي نشاهدها اليوم؛ فإن هذه الدعوة المباركة تمثل الزاد النقي لهذه اليقظة على منهاج النبوة، سليمة من الأهواء والأوهام والانحرافات، مبرأة من مظاهر الشرك وتبعات الغلو.

وهكذا يمتد رواقها في العالم الإسلامي؛ لأنها تمثل الإسلام تماماً؛ كما أنزله الله على نبيه مُحَمَّد ﷺ.

وفي المستقبل: على مشارف الساعة، في أيام الفتنة الكبرى؛ فتنة المسيح الدجال؛ فإن الرجل المؤمن الذي تتحطم على يديه هذه الفتنة هو من أهل هذه الجزيرة؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ المتفق عليه.

وفي هذا إشارة وإيماء إلى أن كل فتنة عمياء صماء تجتاح بلاد الإسلام؛ تتحطَّم على صخرة هذه الجزيرة، وإذا كانت فتنة الدجال هي أعظم فتنة من لدن نوح عليه السلام إلى قيام الساعة، ويكون تحطيمها على يد رجل مؤمن من هذه الجزيرة؛ فإن كل فتنة دونها ستتحطم على يد أبناء هذه الجزيرة بإذن الله تعالى.

ضمانات لحماية هذه الخصائص(*)

كلما امتد رواق الإسلام على أرض؛ فَعُدَّها دار إسلام، ومهما تعددت الولايات –العارضة–؛ فالجميع هو المملكة الإسلامية.

وَعُدَّ عاصمتها جزيرة العرب؛ لما لها من خصائص في الشرع؛ تتميز بها، ولا يشاركها فيها غيرها.

وَعُدَّ جميع المسلمين – مهما تعددت ديارهم وولاياتهم– يُكَوِّنون الجامعة الإسلامية.

وَعُدَّ عرب الجزيرة فيها هم حفاظ هذه الرابطة الدينية للجامعة الإسلامية، وذلك لما لهم من خصال وخصائص شريفة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وإذا كانت مدارج الشرف في الإسلام هي: الإسلام، التقوى، العلم، النسب، وكان أشرف الأنساب هو نسب العرب، وكان العرب هم مادة الإسلام؛ فَعُدَّ عرب الجزيرة هم صلب العرب، وهم مادة المسلمين؛ بعد أن صفاهم الله تعالى من نتن الجاهلية، وغليان العصبية القبلية، ودعاوى الجاهلية، فشرفهم بالإسلام، وحطم قيود الوثنية، والنعرات القومية... وخاطبهم وغيرَهُم: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران:85)، وحفظ لهم ميزاتهم وسر اختيارهم حملة الرسالة الأولين.

إذا كان الحال كذلك؛ فإن دار الإسلام أياً كانت، وإن المسلمين أياً كانوا،

(*) عرض الشيخ حفظه الله لمجموعة من الضمانات لحماية خصائص الجزيرة العربية ما يمكنها من الامتداد والعطاء المستمر.. فإذا ضاق المجال عن أن نعرض لها فلا أقل من أن نفتح نوافذ للإطلالة عليها، الأمر الذي لا يغني عن الرجوع إلى الكتاب: (خصائص جزيرة العرب).

وفي الطليعة هذه الجزيرة وعربها؛ الكل رأس مال، تجب المحافظة عليه، من الضياع والفرقة والانقسام، وتجب تربيته وتنميته واستصلاح أحواله، وهذا أولى من مجاهدة الكفار لإدخالهم في الإسلام؛ لأن استصلاح أحوال المسلمين، وحفظ بيضتهم من باب المحافظة على رأس المال، (والمجاهدة) من باب طلب الربح.

وهل يَطْلُبُ الربحَ من يفتقد رأس ماله؟!.. وهل يُوصَلُ إلى (المجاهدة) والنصرة إلا بالمسلمين، الذين يمثلون الطراز الأول السائر على منهاج النبوة؟!

إن هذه الجزيرة من المنطقة الإسلامية «هي معقل الإسلام والمسلمين، وعاصمته الخالدة، وقلب العالم الإسلامي؛ كمركز القلب في الجسم الإنساني، ورأس مال المسلمين، والخط الأخير في الدفاع عن الوجود الإسلامي»[1].

وهذه الجزيرة[2] «في العالم الإسلامي [بمثابة] مركز القلب في الجسم الإنساني، الذي إذا عاش وقوي وأدى رسالته في الجهاز الجسمي والنظام الحيوي الصحي؛ عاش الجسم، وقوي، وإذا دب الوهن إلى هذا القلب، أو اعتل، وتخلى عن وظيفته ودوره؛ أسرع إليه الموت، واستولت عليه الأمراض والعلل، وعجز الأطباء الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطرق الصناعية.

وقد أشار إلى هذه الصلة الدقيقة العميقة بين القلب والجسد الحديث الصحيح المشهور الذي جاء فيه: «**أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[3].

وذلك لأن الحجاز مهبط الوحي، ومبعث الإسلام، ومصدر الدعوة

(1) رسالة لأبي الحسن الندوي رحمه الله: "إلى أين تتجه الجزيرة العربية وإلى أي غاية تنتهي؟"
(2) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب" للندوي، ص 3-5.
(3) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

الإسلامية، ومركز الإسلام الدائم، وعاصمته الخالدة... فالرسالة الإسلامية مهما كانت عالمية آفاقية، لابد لها من مركز يعد مقياساً وميزاناً لعالميتها وواقعيتها، وأسوة وقدوة لجميع المدن والقرى والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة، وتحتضن هذه العقيدة والدعوة...

وقد عقد الله بين العرب والإسلام، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر.

وقد حرص رسول الله ﷺ - وكان في ذلك نبياً مُلْهَماً وحكيماً كل الحكمة- على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس، بين جزيرة العرب والإسلام؛ فضلاً عن الحجاز والحرمين الشريفين، وحرص على سلامة هذا المركز، وهدوئه، وشدة تمسكه بهذا الدين، وعضه عليه بالنواجذ، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش، وعن كل فوضى، وعن كل صراع عقائدي، أو مبدئي، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج، واسعة المدى، وأوصى لذلك وصاية دقيقة حكيمة، وأخذ لذلك من أصحابه وأمته عهوداً ومواثيق.

وقد ذكرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: « **لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**»[1]...

وأخذ بذلك الخلفاء الراشدون المهديون، فكانوا ينظرون دائماً إلى جزيرة العرب كمعقل للإسلام، ورأس مال الدعوة الإسلامية».. انتهى.

لذلك فإن المتعين على أهل هذه الجزيرة، وعلى من بسط الله يده عليهم وعليها، المحافظة على هذه الميزات والخصائص الشرعية؛ ليظهر تميزها وتبقى

(1) أخرجه أحمد.

الجزيرة وأهلها مصدر الإشعاع لنور الإسلام على العالم.

وليعلم أنه كلما قوي هذا النور؛ امتد هذا الإشعاع، وكلما ضعف وتضاءل في هذه الجزيرة وأهلها؛ تقاصر».. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اعلم أن هذه الضمانات منها ما هو عام لأهل الإسلام؛ مهما كانت ديارهم، ومهما تعدد جنسهم، لكنها تتأكد في حق أهل هذه الجزيرة، ومنها ما هو خاص بها لموجب النص.. ثم منها ما هو متيسر إعماله، ومنها ما فيه نوع عسر ومشقة؛ لاختلال الأحوال، لكن نذكره معذرة أمام الله وأمام التاريخ والأجيال المتعاقبة، والله المستعان.

وإليك بيان بعضٍ منها:

* كما تكون المحافظة على الحدود المكانية لأي إقليم ولائي؛ فإن المحافظة على الحدود الشرعية والخصائص المرعية وصيانتها لهذه الجزيرة واجبة كذلك على من بسط الله يده عليها.

وعليه؛ فإن النتيجة من المحافظة على الحدود الإقليمية الولائية معاقبة من ينتهكها، فكذلك من باب أولى تجب معاقبة من ينال من حدودها وخصائصها وحرماتها الشرعية بما يلاقي انتهاكه شرعاً.

*سلطان الحاكمية فيها لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد، وراية التوحيد...

واعلم أن أي شقاء في الأمة أو فساد هو بسبب ما يُصَبُّ على الأمة من تحلل وانحلال في إقامة الدين بين العباد.

* «اتخاذ الحياة الإسلامية؛ الحياة التي يرضاها الله ويُنْصر عليها، والحرص على إزالة جميع المنكرات، وأسباب السخط، ودواعي الخذلان والفشل؛ في

المجال الإداري، والأخلاق الاجتماعية والفردية، وتتبعها تتبعاً دقيقاً، والحد من الثراء الفاحش، وتكدسه في عدد محدود وطبقة معينة، وتقييد التجارة وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب، وفي مصلحة عدد محدود جداً وطبقة معينة؛ فإن كل ذلك مما يمهد الأرض ويفتح الطريق (للمذاهب) المتطرفة... والحيلولة بقدر الإمكان، وإلى أقصى الحدود؛ فإن ذلك مما يجحف بالشعب، ويجني على الأخلاق، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه مستحيل، وقد نبه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون على ضرورة وسوء أثره في الحياة»[1].. (انتهى ملخصاً).

* إخضاع كل ما يجري ويصدر على أرض هذه الجزيرة؛ من أنظمة، وأوامر، وتعليمات، وقوانين؛ لمقاصد الإسلام، وللمقاصد التي بنيت لها هذه الكعبة المشرفة، واختيرت لها هذه الأرض؛ لتكون مركزاً للإسلام، ومصدر إشعاع عالمياً، وللحكمة التي نبه عليها القرآن بقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:25)[2].

* إزالة التناقض بين إسلامية هذه الديار القائمة منذ فجر الرسالة وإلى يومنا هذا وبين كل ما ينافسها في «مجال الإعلام، والتربية، والمظاهر الاجتماعية، واتجاهات الشعب؛ من اندفاع مشهور إلى الترفيه، والتسلية، والأغاني، والملاهي، والقصص المثيرة، والبرامج المستوردة الرقيعة، التي أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقية من الشعور الديني والحصانة الخُلُقية، ولا يستعد للطوارئ والمفاجآت،

(1) الندوي، ص45.
(2)الندوي، ص44.

ولا يتحمل أقل صدمة، أو خطر من الخارج»[1].

* وإذا كانت الجزيرة، وبخاصة قلبها، تثير حساسية المسلمين عند أي هجمة شرسة عليها؛ من استيلاء استعماري، أو فرض منهج عقدي، أو سلوكي علني، فإن العدا والمبطنين لها؛ سلكوا مسلك الوأد الخفي لعصب الحياة في العالم الإسلامي على أرض الجزيرة: الإسلام صافياً على منهاج النبوة، وذلك بتسرب موجات الغزو؛ تحت شعار الحضارة، وقناع العلم، وتكثيف اجتماعات ولقاءات تكسر حاجز النفرة من الأهواء المضلة، وتذوِّب صفاء الحياة، وتكدر صفوها، وتقودها إلى تراقي الاحتضار.

وعليه؛ فيجب أن يُحسب لهذا كلُّ حساب، فليرفض كلُّ سابلة تؤدي إلى هذا المضمار...

* جزيرة العرب هي بارقة الأمل للمسلمين في نشر عقيدة التوحيد؛ لأنها موئل جماعة المسلمين الأُوَل، وهي السور الحافظ حول الحرمين الشريفين، فينبغي أن تكون كذلك أبداً، فلا يسمح فيها بحال بقيام أي نشاط عقدي أو دعوي – مهما كان – تحت مظلة الإسلام؛ مخالفاً منهاج النبوة الذي قامت به جماعة المسلمين الأولى: صحابة رسول الله ﷺ وجدده وأعلى منارة الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى.

فالجماعة واحدة: جماعة المسلمين.. تحت علم التوحيد.. على منهاج النبوة.

لا تتوازعهم الفرق والأهواء، ولا الجماعات والأحزاب.

وإن قبول أي دعوة تحت مظلة الإسلام تخالف ذلك هي وسيلة إجهاز على

(1) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص 44-45.

دعوة التوحيد، وتفتيت لجماعة المسلمين، وإسقاط لامتياز الدعوة، وسقوط لجماعتها، وكسر لحاجز النفرة من البدع والمبتدعين، والفسق والفاسقين.

والجماعات إن استشرى تعدُّدُها في الجزيرة؛ فهو خطر داهم؛ يهدد واقعها، ويهدم مستقبلها، ويُسلِّم بيدها ملفَّ الاستعمار لها، وبه تكون مُجَمَّعَ صراع فكري وعقدي وسلوكي؛ ينشأ عن ذلك «إسلام إقليمي...[1].

ولما كانت الجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومبدؤه، ومنتهاه، والموئل الذي يأوي إليه الإسلام والمسلمون في ساعات عصيبة، وأزمات مختلفة، وفي آخر الزمان، وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك، فعن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ:«**إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ**»[2].

وعن عمر عن النبي ﷺ؛ قال: « **إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**»[3].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**»[4].

ولما كانت هذه الجزيرة، وهذه البقاع المقدسة، مصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه؛ كان علماء المسلمين وقادتهم – في كل زمان وبلد– شديدي الحساسية لما يقع فيها من حوادث، ولما يجري فيها من

(1) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص8-10.
(2) أخرجه الترمذي وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(3) أخرجه مسلم.
(4) أخرجه البخاري.

تيارات، دقيقي الحساب لمدى تمسكها بالتعاليم والآداب الإسلامية، ومحافظتها على الروح الدينية والعاطفة الإسلامية، كبيري الغَيْرة عليها وعلى قيادتها للعالم الإسلامي، وقد تجلى ذلك في كتابات علماء الإسلام، وأدبهم، وشعرهم؛ في أزمنة مختلفة، وقد سار قول أشهر شعراء إيران وأدبائها: الشيخ مُصْلح الدين سعدي الشيرازي (المتوفى 691هـ) مسير المثل: «إذا بدأت طلائع الفساد والانحرافات من فناء الكعبة، ورحاب البيت الحرام؛ فعلى الإسلام والمسلمين السلام».

وقد فزع الشاعر الفارسي، المسمى بأبي المجد مجدودٍ الغَزْنَوي، المعروف بالحكيم السنَّائيّ، (المتوفى 546هـ)؛ لحوادث جرت في عصره، ولتسرب نفوذ بعض القوى المعادية للإسلام إلى جزيرة العرب، وإلى البقاع المقدسة، ومركز الإسلام، فأشار إلى ذلك في قصيدة له، وحسب له كل حساب، وحذر العالم الإسلامي من سوء عاقبته، وأثار غيرة أهل الحجاز وأبناء الجزيرة».. انتهى.

* وعليه؛ فيجب تعميق الرابطة الدينية، ثم يجب جَذْمُ جذور العصبية لغير الكتاب والسنة، مهما ظهرت، في أي مِسْلاخٍ، فهي عصبيات جاهلية، مُنْتِنَةٌ، تثير الشغب، وتشعل الفتن، وتضرم المشاكل، وتزرع الإحن.

فواجبٌ محاصرتها، وإطفاؤها، وتحطيم جمعها، سواء أكانت عصبية قبلية، أم غيرها، من تلكم الموجات الكاسحة، التي تبذل فيها جهود الشياطين، حاملين جراثيم الهرج؛ ركضاً وراء السراب؛ لنقلة شباب الأمة إلى آخر أشواط التخلف، فيكونون هباءً منثوراً، لا يقتلون صيداً، ولا ينكؤون عدواً.

إنها قوة ما إن تفور إلا وتغور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* يجب تعميق الوحدة الأخلاقية في قالب الإسلام لا غير، فواجب وقف

مرحلة الإغارة على أخلاقيات هذه الجزيرة الإسلامية، والانتقال منها إلى السلوكيات الغثائية الوافدة في مجالات الحياة كافة، وتحت إرخاء العنان للتَّرفُّه والمد الحضاري الغثائي الغربي، والتهام اللذات، والتسابق إلى عوامل الاسترخاء والتميع، والتفكير المترهل، والنهم في جلب الكماليات، والتسابق إلى مظاهر البذخ، حتى في اللباس، والمواقيت ، والمقاييس، والموازين... إلى آخر شهوة التشبه بأعداء الله الكافرين.

وصدق النبيﷺ: « **لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ** »[1].

وما هذا إلا لأن التشبه يفعل الأفاعيل، فيفقد النفوس والبلاد حرمتها ومكانتها، ويقطع صلتها عن الماضي، ويشبه إلى حد بعيد (الميكروبات)، فتلك تمرض القلوب، وهذه تمرض الأبدان.

وإذا كانت الشريعة تنهى عن هذا عموم المسلمين؛ فإن النهي يتأكد في حق أهل هذه الجزيرة.

وواجب – والله– بجانب وقف هذا المد عنهم: ترميم ما فسد في هذه العصابة الكريمة، وما داخلها من أخلاق وافدة غريبة عليها في دينها وعنصرها.

ولابد من دعوة جهيرة؛ لصد هذه العوادي والوِفادات المفسدة لأخلاقيات البلاد، وكف الخطر المحيط بها، وإنشاء أهلها خلقاً آخر؛ على سَنَن الفطرة، يمزقون بهديهم وفعالهم تلك الحملات الغثائية، وما ذلك على الله بعزيز.

(1) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

* التميز في عامة الهَدْي؛ عملاً، وقدوة، ودعوة، على رسم الكتاب والسنة، بلا مضاهاة ولا مشابهة، ولا تغرب؛ فإن الشريعة تنهى عن المضاهاة والتشبه بالمشركين والمنافقين، وبالشياطين، وبالأعاجم، وبالمبتدعة وأهل الأهواء، وبالنساء والمخنثين.. ونحو ذلك من وجوه الانحراف القاضية على تميز الشخصية الإسلامية، بأي نوع من أنواع الانحراف...

وإن الشريعة تنهى عن التعرب؛ بمعنى: الرجوع إلى البادية بعد الهاجرة، وبمعنى مشابهة الأعراب فيما يخالف هدي الإسلام، ولو بالألفاظ؛ كلفظ: (العَتَمة):
«... **لا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاتِكُمْ العتمة؛ فإنما هي العشاء**»[1].

إن الشريعة كما تزدحم نصوصها وقواعدها في رفض هذه العوامل المنحرفة؛ فإنها ترسم للمسلم هدياً سوياً يرفض التبعية والمحاكاة والانحراف، ودعت إلى تعريب الأمة؛ فيما أقره الإسلام من فاضل أخلاق العرب، وصفاتهم، وسماتهم، وذلك من طرق شتى:

أ- تعريب لسان الأمة من رطانة الأعاجم إلى شعار الإسلام، ولغة القرآن؛ لسان العرب؛ «لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»[2].

ب- تعريب أخلاقها، وذلك بالمشابهة للسابقين من الصحابة ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

---

(1) رواه مسلم (644)، وأبو داوود (4984)، والنسائي (270/1)، وفي رواية لمسلم: **(لا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاتِكُمْ ألا إِنَّهَا الْعِشَاءُ وَهُمْ يُعْتِمُونَ بِالإِبِلِ)**.
(2) "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص207.

وفي هذا نظر إلى فقه السلف، حيث فضلوا كثيراً من غير العرب على العرب؛ لتعريب أخلاقهم، ومشابهتها بأخلاق السلف الصالح.

قال الأصمعي رحمه الله تعالى[1]: «عجم أصبهان قريش العجم».

ولقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، آثاراً مهمة على هذا المنحى؛ قال: «إن الأمة مجمعة على هذه القاعدة، وهي: فضل طريقة العرب السابقين، وأن الفاضل من تبعهم»...

* ويجب أن يكون دور حراس الشريعة في هذه الجزيرة من منجزات الحضارة الحديثة؛ في الطب، والهندسة، والاقتصاد.. هو دور الأصالة والتجديد، لا دور التبعية الماسخة، والوأد الخفي - بل والعلني- لمقومات البلاد الأساسية: الإسلام، وخوض عجلة الحياة في الأوحال.

وعليه؛ فبعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في هذه العلوم؛ من أهم المهمات لبناء الحياة في هذه الجزيرة على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.

* حَمْلُ أهلها على الحماس الديني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعميق التقوى، والشوق إلى الترقي؛ لحماية الشريعة.

ومن الأولويات: شكر هذه النعم ببسط لسان التذكير، وقلم التدوين؛ بما أفاء الله عليهم وأنعم من هذه الخصائص، وأن من شكرها المحافظة عليها، وحفظها، وإعمال الحياة في قالبها، وأن أي تشويش عليها خدش لها، ونقص لشكرها، وبالتالي غياب لمزية القدوة.

(1) المرجع السابق، ص164.

ومن لازِمِ ذلك الإجهازُ على أي عادة أعجمية، أو عامل حضاري غثائي، وأن يبقى حق الامتياز في هذه الجزيرة إسلامياً محضاً، يرفض كل تقليد دامس، ولا يقبل يد أي لامس.

والله الهادي إلى سواء السبيل.